الأسطورة بوصفها مصدرا لدراسة التاريخ
أسطورة قايين وهابيل التوراتية أنموذجاً

الأستاذ المشارك الدكتور محمد العلامي
جامعة الخليل - فلسطين
Email: mohamd_alami@yahoo.com

الملخص

قام الباحث بدراسة أسطورة قايين وهابيل وتحليلها من وجهتي النظر التأريخية – الحضارية، ووجد فيها صيغتان: رعوية، تدافع عن المجتمعات الرعوية، وزراعية تدافع عن المجتمعات الزراعية، وظهرت على ملتقى نمطين اقتصاديين كبيرين، النمط الاقتصادي الرعوي القديم، والنمط الاقتصادي الزراعي الجديد وهذه الأسطورة عكست الصراع بينهما.

Abstract

The researcher studied and analyzed the myth of Cain and Abel from the historical point of view - of civilization, which is the source for the study of history, and found the two forms: pastoral (defending pastoral communities) and agricultural (defending agricultural communities) and appeared at the crossroads two types economists senior, old pastoral economic pattern, and the pattern new agricultural economic, and this myth reflected the conflict between them.

الأسطورة لغةً:

حادثة، أحداث، خبر، أخبار، ورواية تقص أحداث وقعت في بداية الزمان وحكاية تاريخية تنطوي على الخيال، وقصة مجازية أو رمزية ترجع إلى فلسفة عصرها، وتتضمن أحداث خارقة للطبيعة.

الأسطورة اصطلاحاً:

مادة أدبية تجمع بين الفكر والخيال والوجدان، وأداته الرمز، والشكل السردي أحد أشكالها. وهي القصة المقدسة التي كان أصحاب الحضارات السابقة يؤمنون بها على أنها كتبهم المقدسة نوعا ما.. تتميز الأسطورة بعمقها الفلسفي الذي يميزها عن الشخصية الاسطورية مثلاً أو الحكاية الشعبية. كانت الأسطورة سابقاً كما العلم الآن أمراً مسلماً بمحتوياته [١].

تعدُ المصادر الميثولوجية مصدراً مهماً لدراسة تاريخ الشعوب ، ولا سيما التي لا تمتلك نصوصا تاريخية خاصة بها، حيث تساعد في حل إشكاليات تاريخية كثيرة، فالأسطورة في مثل هذه الحالة تصبح مصدراً للمعرفة. فإشكالية العلاقة بين التاريخ كعلم والأسطورة في غاية الأهمية، ولا سيما عندما بدأت تظهر الكتابات التاريخية الأولى في الألف الثالث قبل الميلاد في كل من بلاد الرافدين ومصر القديمة وبلا عيلام وبلاد الأناضول وبلاد الشام ، ومن الضروري أن نُميز بين التاريخ بوصفه علما يبحث في الأفعال البشرية التي حدثت في الماضي (энциклопедия мифы народов мира. 1991. стр. 572) منذ ظهور أولى الكتابات شبه التاريخية في مجتمعات الشرق القديم وبين الأسطورة.

فالأسطورة تعدٌ شكلا من أشكال التاريخ، ابتدعت لتلبية الاحتياجات البشرية، للإجابة عن مجموعة من الأسئلة: كيف ظهر الكون، والحياة، والثقافة، وكيف تشكلت علاقة الإنسان بالطبيعة، فطبيعة الإجابة عن تلك الأسئلة تعتمد على حالة المجتمع وحجم المعلومات التي تقع تحت تصرفه، ولندرة المعلومات عن ماضي الشعوب، على سبيل المثال الإغريق، فقد وضع مفكروهم القدماء نظرية الكوارث الطبيعية والطوفان التي دمر أراضيهم، فحاولوا سد الفجوات في الذاكرة التاريخية من جيرانهم الذين أبقوا تقاليد كتابة قديمة. (Емировский А. И. 2004. с. 451-454).

ومن المتعارف عليه أن الغالبية العظمى من الأساطير هي التاريخ القديم للشعوب، التي لم تشك بواقعية الطوفان، ولاحقا عندما بزغت تلك العقول النيرة التي أصبحت تشك بتلك الأساطير ولكنها لم تتخل عنها بوصفها مصدرا تاريخيا ، بدأت تنظف تلك الأساطير من الخيال، ولم يتم رفض الأساطير لعدم واقعيتها، وإنما تم البحث في عدم واقعيتها، حيث تزودنا بمعلومات عن نشأة التصورات الدينية التي تسمح لنا أن نفهم كيف نشأت التساؤلات والخيالات وماذا يكمن خلفها.

وعندما بدأت دراسة الأسطورة وتحليلها برزت مشكلة الأسطورة والتأريخ ، فهي مستودع ماضي البشرية ولكن في شكل بعيدٍ عن المدونات التاريخية ، وهي قصة البشرية في كل مظاهرها، فكلما عرفنا أكثر عن الماضي عن طريق الوثائق كلما أصبحنا نفهم الأسطورة كشكل من أشكال الحياة الروحية والتاريخية.

حقاً إن الأسطورة تخلق صورة مشوهة وناقصة ولكنها مهمة ومثيرة للاهتمام، فالوعي الأسطوري استوعب الحقائق التاريخية الرئيسة، كما أنها مصدر مهم لفهم العلاقات الثقافية بين الشعوب. وأستطيع القول إن الأسطورة معقدة في بنيتها وحساسة مثل دماغ الإنسان ، فمن الصعب اختراقه بسهولة كسائر أعضاء الجسم البشري، ولكن إذا تم هذا الاختراق فيعود بنتائج مذهلة.

يجب على الباحث في الأسطورة أن يجمع أدواته وأسلحته لفك رموز الأسطورة، وعندها نندهش في قيمتها الفكرية والفنية، ومن خلال الأسطورة يطير الإنسان بلا أجنحة فوق الواقع، فيهرب من أعدائه، ويتخلص من أشراره، ويذهب إلى أقصى الأرض والكون، ويتغلب على ضعفه، ويخرج عن نطاق زمنه.

ومن المعروف أن المجتمعات البدوية لا تزال تبجل حرفة الرعي، وتنظر إلى الزراعة نظرة ازدراء، وهذا ما نجده أيضاً عند العرب بعامه وفي الشعر الجاهلي عند الأعشى بخاصة (ديوان الأعشى الكبير: ١٩٦٨، ص٣٤) حيث يصف لنا مدى ازدرائه للزراعة، وأنها مهنة متدنية. ومرد ذلك نجده في الموروث الثقافي، ولا سيما في أسطورة قايين وهابيل، ولذلك سأحاول في هذه الدراسة أن أفسر أسطورة قايين وهابيل من وجهتي النظر التاريخية – الحضارية، وماذا يمكن أن تفيد منها في دراسة التاريخ.

يبدو للوهلة الأولى أن أسطورة قايين وهابيل [٢] (التكوين: ٤، ١-١٦) واضحة تماماً، قايين وهابيل هما أبناء الأب الأول للبشرية. يقدمون القرابين للرب: يقدم قايين المزارع من ثمار الأرض، وهابيل مربي الماشية من أبكار غنمه، ويتقبل الرب قربان هابيل، ويغض النظر عن قربان قايين، وبسبب الغيرة يقتل قايين أخاه هابيل لاستيائه من رفض قربانه، وحسده من قبول قربان أخيه، لذلك طرد الرب قايين من على وجه الأرض، وحكم عليه التجول للأبد، ويستوطن قايين بعد ذلك في أرض أود فيبني مدينة، ويصبح جد النسل الذي تعزى إليه أصول المدنية.

واعتقد أن أسطورة قايين وهابيل في ذلك الشكل الذي وصات به إلينا تمثل سردا قصيرا غير مترابط نسيت من قبل القدماء، وأنها مأخوذة من مصادر متنوعة لأسطورة شعبية، أو أن المصدر من خيوط متنوعة (صموئيل هنري هوك، ١٩٨٣، ص ١٠٢-١١١)، فهي تفترض أنه لا يوجد على قيد الحياة سوى آدم، وحواء، وقايين، وهابيل، وفي الوقت نفسه تفترض خوف قايين من ثأر بشري ما فيقول "يكون كل من وجدني يقتلني" (التكوين: ٤، ١٤) وفي الأسطورة نفسها تتحدث عن مرحلة من المدنية تنطوي على بناء المدن، ومعرفة الأشغال المعدنية، وإنشاء آلآلات الموسيقية ، وهذا يتناقض مع بدايات الحياة على الأرض. وبعد إلقاء نظرة فاحصة على أسطورة قايين وهابيل نجد فيها صيغتين رعوية وزراعية.

الصيغة الرعوية

يكمن المضمون التاريخي (винников и н. 1974 p123) في هذه الصيغة أنها ظهرت على ملتقى نمطين اقتصاديين كبيرين، الأول النمط الاقتصادي الرعوي القديم، والثاني النمط الاقتصادي الزراعي الجديد، ويعكس موقف المجتمعات الرعوية السلبية من التغيرات الجذرية التي حدثت في نمط حياة

المجتمعات الرعوية. فكلاهما قايين وهابيل يقدمان القرابين للربَ ، كل يقدم من ثمار عمله، فالرب يتقبل قربان هابيل الراعي، ولا يتقبل قربان قايين المزارع، وبهذا المعنى يمكن أن نفهم تلك الأسطورة "فنظر الرب إلى هابيل وقربانه، ولكن إلى قايين وقربانه لم ينظر" (التكوين: ٤، ٤) فهذا أمرُ طبيعي ، لأن فكرة الرب يهوة بدأت تتشكل عند الرعويين بالذات، مع البطارقة إبرام، إسحق، ويعقوب، ممثلي نمط المجتمعات الرعوية، ويعقد الرب يهوه عهدا أبديا مع إبرام، ويقول الرب لإبرام "وأقيم عهدي بيني وبينك وبين نسلك من بعدك في أجيالهم عهداً أبديا" لأكون إلها لك ولنسلك من بعدك" (التكوين: ١٧–٧) ويلقب الرب يهوة برب إبرام، وإسحق، ويعقوب، وهكذا يمكن أن يفكر قايين في أن الرب لم يقبل قربانه ، لأنه لم يقدم قربانه من أفضل ثمار الأرض كما يتطلب ذلك الطقس "أول أبكار منك تحضره إلى بيت الرب إلهك. لا تطبخ جديا بلبن أمه" (الخروج ٢٣: ١٩، ٣٤: ٢٦) وكما قام هابيل بتقديم قربانه من أبكار غنمه ، إلا أن الرب يقول له إن الأمر ليس كذلك، ويشير إلى الذبيحة الموجودة في مثواه، وبصريح العبارة يقول تلك الذبيحة فقط هي المفضلة لديه، قايين يقتل خصمه الراعي ويعتقد أنه بهذه الطريقة يجبر الرب على تغيير موقفه منه ، ولكن الرب يلعن قايين ويطرده من الأرض، فالرب يكره الزراعة كثيراً: حيث أعلن الرب أن الأرض مذنبة وملعونة "متى عملت الأرض لا تعود تعطيك قوتها" ويرفض أن يعمل في الزراعة ويعود إلى الحياة الرعوية القديمة. مع العلم أنَ الأرض قد لعنت مرة عند لعن آدم " وقال آدم: "لأنك سمعت امرأتك وأكلت من الشجرة التي أوصيتك قائلاً: لا تأكل منها، ملعونة الأرض بسببك. بالتعب تأكل منها كل أيام حياتك") (التكوين ٣: ١٧-١٨) هذه اللعنة غير مناسبة ، وكانت سابقا للتأنيب، عندما كان يدور الحديث عن ثلاثة يقفون أمام المحكمة " الأفعى، حواء، آدم، أن الرب لا يرغب في موت قايين ويأمل أن يرجعه إلى الحياة القديمة ، فوضع علامة تدل على انتمائه القبلي، وأن الهدف منها هو الحماية من الأعداء، وهكذا فإن قايين يتخوف من الثأر الحتمي من أقرباء (Frazer j G,1919. P. 78-103) القتيل، هذه هي الصيغة الرعوية القديمة لتلك الأسطورة.

الصيغة الزراعية

مع الانتقال النهائي للزراعة والحياة الحضرية أصبحت الصيغة الرعوية قديمة لا تتناسب مع متطلبات المجتمع الجديدة، وفي واقع الحال لم تختف الصيغة الرعوية كلياً، فقد بقيت في الصيغة الزراعية بعض الإضافات والتي من السهل أن نفصلها عن النواة الأساسية، فالجزء الثاني من البيت السابع "وإليك اشتياقها وأنت تسود عليها" (التكوين: ٤: ٧) فمن الواضح أنه إضافة لاحقة من قبل مؤلف مزارع، وهذه الإضافة لم تفسر لغاية الآن، فربما أراد الرب أن يواسي قايين، وكأنه يقول له أن أخاك الراعي لا يستطيع

أن يتجول بدونك ، ومن الواضح في أن المؤلف وقف إلى جانب المزارع قايين، وقرر أن يضع على شفه الرب مثل تلك الكلمات " فيكون كل من وجدني يقتلني" (التكوين: ٤، ١٥) وفي النهاية نجد الإضافة في النصف الثاني من البيت السابع حيث ينتقل كلياً إلى الصيغة ذات الطابع الزراعي، والرب يحافظ على نمط الحياة القديمة، ويطرد قايين من على وجه الأرض ويلعنه، ويبدأ قايين بتشييد مدينه ، أي يعني بلا رجعة إلى الحياة الرعوية وينتقل إلى الحياة الحضرية.

وإذا كانت الصيغة الأولى تدافع عن الحياة الرعوية القديمة فإن الصيغة الثانية تعلن انتصار الحياة الجديدة وهي الحياة الحضرية المدنية.

وفي المرحلة الانتقالية من تربية الماشية إلى الزراعة نجد كلمة شحم تتكرر في العهد القديم، فالشحم عند المجتمعات الرعوية هو الشيء القيم واللذيذ في الحيوان، وفي المرحلة الانتقالية للزراعة أصبحت كلمة شحم تستعمل لثمار الأرض، وقالوا **" شحم الشوح" " شحم العنب والحنطة" عندما أرادوا القول " أجود الشوح" " أجود العنب والحنطة"**، (العدد: ٨، ١٢)**" أو دسم الأرض"** (التكوين: ٤٥، ١٢)، أو شحم الحنطة بدلا من **" أجود الحنطة"** (المزامير: ٨١، ١٧، ١٢: ١٤٧، ١٤)

وأخيرا يقول رائد الإنثربولوجيا الحديثة جيمس فريزر (جيميس فريزر،٢٠١٤، ص١٢٣) صاحب مدرسة الأسطورة والطقس أنَ الأسطورة قد استمدت من الطقوس ، فبعد مرور زمن طويل على ممارسة طقس معين وفقدان الاتصال مع الأجيال التي أسسته، يبدو الطقس خالياً من المعنى ومن السبب، والغاية، وهنا تبرز الحاجة إلي إعطاء تفسير وتسويغ له، ومن هنا تأتي الأسطورة لإعطاء تسويغ لطقس مبجل قديم لا يريد أصحابه نبذه أو التخلي عنه.

الخاتمة :

تعد الأسطورة مستودع ماضي البشرية، وتأريخها القديم ، ويستنتج الباحث أن أسطورة قايين وهابيل مأخوذة من مصادر عديدة، أو أن تلك المصادر خيوطها متنوعة، فتعرفنا على بعض عادات الشعوب السامية وتقاليدها في المرحلة الرعوية والزراعية، وموقف تلك الشعوب من التغيرات التي طرأت على نمط حياتهم ونجد فيها صيغتين رعوية وزراعية، فمؤلف الصيغة الرعوية يدافع عن نمط المجتمعات الرعوية، وكذلك مؤلف الصيغة الزراعية يدافع عن المجتمعات الزراعية ، ويعتقد الباحث أن سبب تداخل هاتين الصيغتين ، لأنهما ظهرتا على ملتقى وتداخل نمطين اقتصاديين كبيرين: النمط الاقتصادي الرعوي القديم، والنمط الاقتصادي الزراعي الجديد.

المصادر

١- التوراة

٢- جيمس جورج فرايزر، الغصن الذهبي، دراسة في السحر والدين، ترجمة نايف الخوص، دمشق، ٢٠١٤.

٣- ديوان الأعشى الكبير، تحقيق محمد حسين، بيروت، ١٩٦٨.

٤- صموئيل هنري هوك، منعطف المخيلة البشرية، بحث في الأساطير، ترجمة صبحي حداد، اللاذقية، ١٩٨٣.

5- энциклопедия мифы народов мира. т. 1. стр. 572.

6- Немировский А. И. ;Мифы и легенды народов мира т. 1 Древняя Греция. м. 2004

7- Frazer j G. folklore in the old Testament. Vol. II. London,1919

8- винников и н. социальная сушность сказания о первом братоубийстве в кн. палестинский сборник. в 25 (88) 1974.

الهوامش :

(١) إمام، إمام عبد الفتاح، معجم ديانات واساطير العالم، مكتبة مدبولي، القاهرة، ١٩٩٥.

(٢) قايين وهابيل: هي الصيغة العبرية الواردة في الاصحاح الرابع من سفر التكوين، وهي تقابل شخصيتي قابيل وهابيل في التفاسير الإسلامية لما ورد في القرآن الكريم عن قصة ابني آدم (سورة المائدة، الآية: ٢٧).